PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2025) 62(04):464-474
ISSN: 1553-6939

The dialectical relationship between humans and the environment. «from shallow ecology to deep ecology in Arnee Naess »

Boulekfouf Zohra[1], Tires Habiba[2]

[1]PhD student, Faculty of Human and Social Sciences, Department of Philosophy, Hassiba Ben Bouali University - Chlef, Laboratory of Society and Local Development Problems in Algeria (Algeria).

[2]Associate Professor (A), Department of Philosophy, Social Sciences Division, Hassiba Ben Bouali University – Chlef, Laboratory of applied philosophy and future studies (Algeria).

The Author's E-mail: z.boulekfouf@univ-chlef.dz[1], Tires.habiba@gmail.com[2]

Received: 10/09/2024 Published: 23/04/2025

Abstract:

Traditional theories that glorified humans and elevated the mind, additionally to scientific progress and the capitalist system which based on the principle of freedom and competition, have served as foundational references in shaping the relationship between humans and the environment. And are also a main reason for the current ecological crisis. This latter was imposed on philosophical discussion to think again about the environment ethics. One of the philosophical ecological vision is "the deep ecology" to the Norwegain philosopher "Arne Naess", so that we can make a healthy, balanced relationship between humans and the environment. This article intends to provide a critical perception of the dialectical relationship that relates human with the environment along various philosophical stages and focuses on Arne Naess deep ecology principle.

Keywords: deep ecology, environment, land ethics, nature.

جدلية العلاقة بين الإنسان والبيئة "من الايكولوجية الضحلة إلى الايكولوجية العميقة عند أرني نايس"

ط.د/ بولكفوف زهرة[1]، د/ تيرس حبيبة[2]

[1]طالبة دكتوراه،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية بالجزائر (الجزائر).

[2]أستاذة محاضرة أ، شعبة الفلسفة، جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف، مخبر الفلسفة التطبيقية والدراسات المستقبلية (الجزائر).

ملخص:

شكّلت النظريات التقليدية التي مجّدت الإنسان وأعلت من شأن العقل، بالإضافة إلى التقدم العلمي والنظام الرأسمالي القائم على مبدأ الحرية والمنافسة مرجعية أساسية في تحول علاقة الإنسان بالبيئة، وسببا رئيسيا في الأزمة الايكولوجية الراهنة. هذه الأخيرة التي فرضت نفسها على ساحة النقاش الفلسفي من أجل إعادة التفكير في أخلاقيات البيئة من جديد. ومن بين الرؤى الفلسفية التي نظرت لإشكالية البيئة نجد الفيلسوف النرويجي "أرني نايس"الذي قدّم لنا ما يعرف بـ"الايكولوجية العميقة" التي من خلالها يمكننا تأسيس علاقة صحية ومتوازنة بين الإنسان والبيئة، وعليه نسعى من خلال هذا المقال تقديم رؤية نقدية للعلاقة الجدلية التي ربطت الانسان بالبيئة عبر مختلف المحطات الفلسفية مع التركيز على الأسس التي قامت عليها الايكولوجيا العميقة عند ""أرني نايس".

الكلمات المفتاحية: الايكولوجيا العميقة، البيئة، أخلاق الأرض، الطبيعة.

مقدمة

استقطبتالطبيعة اهتمام الفلاسفة منذ عابر العصور فهي مهد الإنسان الأوّل ووعاء تاريخه وحاضره ومستقبله، والمسرح لكل أعماله ونشاطاته منذ بداية وجوده إلى نهايته. وارتبطت علاقة الإنسان بالبيئة وتصوّره لها بتغيرالعصور وتطورالحياة. حيث انتقل في تعامله معها من مرحلة التقديس والتأليه إلى مرحلة التفسير والتوظيف ثم إلى مرحلة الاستغلال والسيطرة، وصولا إلى مرحلة الاستنزاف والاستبداد التي كرّست لها فترة الحداثة من خلال فكرة المركزية البشرية، وعرفت أوجّها في زمن مابعد الحداثة الّذي اكتسحته قيم الديمقراطية والليبرالية وبلغ فيه العلم والتقنية ذروتهما. فسُيّد الإنسان على الطبيعة وتمكّن منها. كل هذه العوامل تداخلت وكانت كفيلة لتعصف بكينونة الطبيعة وخصوصيتها، فهي التي كانت بالأمس تحظى بالتأليه والتقديس هاهي اليوم تتخبط في العديد من الأزمات والتحولات الايكولوجية التي تهدد جوهر كل وجود. هذا الوضع المأساوي الذي آلت إليه استوجب نشأة مذاهب فلسفية ايكولوجية تعيد النظر في علاقة الإنسان بالبيئة تقوم على تغيير المعايير الأخلاقية الكلاسيكية وتوسيعها لتشمل كل الكائنات غير البشرية، وتحريرها من النزعة النفعية الضيقة. ومن الرؤى الفلسفية التي عبّرت عن قلقها إزاء ماصنعته أيادي الإنسان بالطبيعة "الايكولوجية العميقة" للفيلسوف النرويجي "أرني نايس" الذي اهتم بمستقبل الإنسان والطبيعة وعمل على إيجاد اتيقا جديدة تعمل على أنسنةالبيئة عرفت بمصطلح " الايكولوجية العميقة".

وعليه فيما تتمثل الأسس الفلسفية التي قامت عليها الايكولوجيةالعميقة في إعادة أخلقة البيئةعند "أرني نايس"؟

أولا: مفهوم البيئة:تعددت واختلفت معاني البيئة باختلاف الطرح الإيديولوجي والثقافي والعلمي لها:

1. المفهوم اللغوي:

وردت كلمة البيئة في المعجم الوسيط بمعنى المكان: " البيئة مشتقة من الفعل باء، بوأ ويقال تبوّأ المكان أي نزل فيه وأقام"(المعجم الوسيط، 2004، صفحة 80). استنادا لقوله عز وجل: "والّذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم" الحشر9. وهنا دلّت على معنى الدار أي المكان. وفي آية أخرى " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأّكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا ألاء الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين" الأعراف 74.وهنا تحمل البيئة معنى المكان بل والتمكين من الأرض أي أنّ الله سخّر لهم الأرض التي تحتوي شروط الحياة من ماء وغذاء. من هنا يتضح أنّ كلمة البيئة تدل على المكان الّذي يستطيع الإنسان أن يحقق فيه شروط وجوده وحياته، وهي الشروط التي أودعها الله في الطبيعة وسخرها لصالح الإنسان.

وجاء في لسان العرب لابن منظور "بوأتك بيتا بمعنى اتخذت لك بيتا والبيئة والباءة والمباءة المنزل، وتبوأ فلان منزلا أي اتخذه، باء إلى الشيء يبوء بوءا أي رجع، وتبوأ أينزل وأقام، وبوأتك بيتا أي اتخذت لك بيتا(منظور،

لسان العرب، صفحة 284). فمفهوم البيئة واشتقاقاتها اللغوية حسب "ابن منظور" يرجع إلى المنزل والمكان الذي ينزل فيه الإنسان. ويعرفها أيضا "جميل صليبا" بأنّها المنزل أو الحالة(صليبا، 1978، صفحة 221).

إذن تجمع معاجم اللغة العربية على أنّ البيئة تعبر عن المكان أو المحيط الذي يعيش فيه الكائن الحي وفقا لشروط معينة للحياة.

2.المعنى الاصطلاحي:

تطلق البيئة على مجموع الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد والمؤثرة فيه، حيث نقول البيئة الطبيعية أو الخارجية، والبيئة العضوية أو الداخلية، والبيئة الاجتماعية والفكرية(النشار، 2020، صفحة 15).

ثانيا: الايكولوجيا

من المفردات المتضايفة مع البيئة كلمة "ايكولوجيا Ecology"، وتعني علم البيئة.ويعتبرالعالم الألماني "ارنست هيكل"(1834_1919) Ernest Heakelأوّل من نحت مصطلح الايكولوجيا، بدمج الكلمتين اليونانيتين "oikos"وتعني المنزل أو المكان و"logos" أي علم. وقد استخدمه في البداية كي يشير إلى فرع من فروع البيولوجيا العضوية التيتهتم بدراسة العلاقات التي تربط بين أجزاء الكوكب -كوكبالأرض-باعتباره منزلنا نحن البشر(رومية، صفحة 1). "ويهتم هذا العلم بالكائنات الحية وتغذيتها وطرق معيشتها وتواجدها في مجتمعات أو تجمعات سكنية أو شعوب كما يتضمن أيضا دراسة العوامل غير الحية، مثل خصائص المناخ، الحرارة، الرطوبة، الإشعاعات، غازات الهواء، والخصائص الفيزيائية والكيميائية للأرض والماء والهواء"(أحمد، 2006، صفحة 11). أعطى "أرنست هيكل" مفهوما جديدا للبيئة ركّز فيه على البعد البيولوجي أكثر من الايكولوجي، لأنّه يقوم على دراسة التفاعلات بين الكائنات الحية والوسط الذي تعيش فيه، ولم يقدّم أو يشر إلى التفاعلات الإيجابية والسلبية خاصة بين الإنسان والبيئة أو الأزمات التي تواجهها البيئة وكيفية حمايتها أو أنسنة البيئة وغيرها من الأفكار التي طُرحت عندما تأسس علم البيئة وفلسفتها.

خلاصة القول أنّ مفهوم البيئة أو الايكولوجية في الفكر العربي أو الغربي متقارب في المعنى، فقد دلّت على المكان الّذي يحيا فيه الإنسان وفق شروط بيئية معينة.

ثالثا: المرجعيات الرئيسية للأزمة البيئية

1. المركزية البشرية

تعود جذور هذه النظرية إلى الفلسفة اليونانية واللاّهوت المسيحي، لكنها ترسّخت أكثر مع تطور الحضارة الغربية الحديثة، وهي تضع الجنس البشري مركز الكون وسيّدته على الطبيعة وخوّلت له حق السيطرة عليها واستغلال كل الثروات الطبيعية(رومية، صفحة 3)بحكم طبيعته العاقلة أي باعتباره متفوقا على باقي الكائنات الأخرى بملكة العقل وحرية الاختيار تبعا لإرادته الشخصية، وبحكم الضرورة الأخلاقية أيضا. فهو أصل ومعيار كل قيمة،أي هو وحده دون الموجودات الأخرى محل للقيمة الجوهرية، في حين أنّ باقي الكائنات تستمد قيمتها من دعمها وترقيتها للقيم البشرية. فأصبح بذلك الإنسان ينظر للطبيعة على أنّها خزّان لاينضب وللكائنات غير البشرية على أنّها مجرد وسائل ومواد خام وُجدت لتُسخّر لإشباع رغباته وحاجياته وخدمة منافعه الخاصة سواء اقتصادية، جمالية، ترفيهية...الخ. هذه النظرة التي يسميها الفيلسوف النرويجي "أرني نيس"Arne Naessبالإيكولوجية الضحلة أو كما يصطلح عليها أيضا الفيلسوف الأمريكي"ريتشارد سيليفان روتلي" (1935-1996) Richard SylvanRoutley

بالبشرية الشوفينية(Routly, 1979, p. 56). وقد اجتمعت ثلاث عوامل رئيسية وتداخلت لترسّخ المركزية البشرية وهي العقل، السيادة (السيطرة) والغائية، فقد تمكن الإنسان بفضل قوته العاقلة من السيطرة على الطبيعة وأن يصبح سيدا ومركزا للكون،والطبيعة ملكية حصرية له وهوحر في أن يتعامل معها كما يشاء، إنّها توجد لأجله وحسب.

1.1 الثنائية الديكارتية:

يشير الكثير من الفلاسفة الايكولوجيين إلى فلسفة "ديكارت (1596-1650)René Descartesبأصابع الاتهام ويحمّلونها ما آلت إليه النظرة المتمردة على العالم الطبيعي. حيث يعتبر ميلاد الثنائية الديكارتية "المادة والروح" أي الأنا المفكرة والمادة الممتدة منعرجا حاسما في تاريخ علاقة الإنسان بالطبيعة ونقطة بداية لعلاقة مضطربة بينهما، فقد قُلبت الموازين وأصبح على إثرها الإنسان السيد المهيمن والطبيعة مجرد شيء مادي قابل للتمدد وفق نتائج العقل. فإثبات الإنسان لوجوده كجوهر مفكر يتقوّم بذاته وحسب منحه انفصاله واستقلاله عن العالم، عالم الامتداد الذي أُقصي إلى مرتبة آخر موجود في الخارج هناك. فمادام التفكير خاصية إنسانية فعليه أن يتّبع قواعد التفكير الصحيحة ومادام الامتداد خاصية للطبيعة فلابد أن تتمدّد وفق قواعد التفكير(محمود، 1999، صفحة 106).

كما دعا أيضا في كتابه مقال عن المنهج إلى إيجاد فلسفة عملية تتيح سيادة الإنسان على عالم الطبيعة " أقنعتني اكتشافاتي أنّه من الممكن أن نصل إلى معرفة ستكون ذا نفع كبير في هذه الحياة وأنّه لابد من فلسفة عملية تعرف بواسطتها طبيعة وسلوك النار، الماء، الهواء والنجوم والسماء وكل الأجسام الأخرى...وبذلك نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع مالايُحصى من المصنوعات الّتي تجعل المرء ينعم دون جهد... وبالإضافة إلى مانعرفه الآن من المهارات المختلفة لعمالنا نستطيع أن نستخدم هذه الكيانات وفق الأغراض المناسبة لها وبذلك نجعل أنفسنا سادة على الطبيعة وملاكها"(ديكارت، 1930، صفحة 119).

طالب "ديكارت" بضرورة الربط بين الفلسفة والعلم بحيث يكون للفلسفة مردود علمي وعملي وهذه المقولة وضعت الذات المفكرة مقابل الطبيعة. وبذلك يكون قد أكّد صيحة "فرنسيس بيكون" مؤسس المنهج التجريبي الذي دعا إلى تطبيقه من أجل معرفة قوانين الطبيعة والسيطرة عليها تحت شعار "المعرفة هي السلطة" فنحن نفهم العالم حتى نتمكن من السيطرة عليه. وينبغي على البشرية التدخل في الطبيعة والتلاعب بها بواسطة التحكم التجريبي بما يقود إلى اختراع تكنولوجيا جديدة. وحتى الحيوانات اعتبرها "ديكارت" مجرد آلة مسخرة لخدمة البشر على أساس أنّ الحيوان لايملك عقلا فهو أقل مكانة منه إلاّ أنّ هذه الميزة لاتعطيه الحق في استعمال الإنسان كآلة والتعدي على حقوقه. وقد رفض تايلور هذه النظرية قائلا: " إنّ الحيوانات لدى ديكارت لاتختلف جوهريا عن الأجسام غير الحية والشيء نفسه ينطبق على النباتات فكلاهما أشياء غير قادرة على الحياة الواعية"(نسيم، 2019، صفحة 205).

فالطبيعة وفقا للثنائية الديكارتية جوهر ممتد تخضع للقوانين الآلية الميكانيكية، فهي وحدها الكفيلة بتفسيرها، هذه القوانين التي لاتتعامل مع الموضوعات إلاّ بمنطق التفسيرات الكمية الخالية من أيّ حياة(محمود، 1999، صفحة 106)وهو مابرّر للذات الإنسانية السيطرة عليها. لتتيح بذلك هذه النظرية للعلماء أن يتعاملوا مع الطبيعة على أنّها موضوع خارج الذات وأنها شيء ميت يجب فك شيفرتها لتسخيرها لخدمة الإنسان.

إنّ التمييز المطلق الذي أقامه ديكارت بين الفكر والواقع تسبب في إحداث فجوة بين الإنسان ومحيطه الحيوي. وقد تزامنت نظرية ديكارت مع نشأة العلم الحديث وتأسيس مناهج دقيقة للسيطرة العلمية على الطبيعة بفضل "جاليلو" و"كيبلر" وغيرهما لإقامة علم طبيعي رياضي.

2.1: الواجب الأخلاقيالكانطي

على الرغم من أنّ عصر الأنوار ثار على الفكر الوسيط إلاّ أنّه استبقى فكرة تفوق الإنسان على باقي الكائنات الأخرى، لأنّ الله خلق البشر على صورته فرسّخ بذلك مبدأ الإنسان مركز الكون وسموّه عن كل الموجودات بملكة العقل. وقد لخّص "كانط"Kant(1724-1804) فكرةالتنوير بقوله: " الإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي يملك العقل أو الفهم وهو على يقين سيّد الطبيعة بلا نزاع وإذا نظرنا إلى الطبيعة باعتبارها نسقا غائيا متكاملا فقد وُلد الإنسان ليكون الغاية النهائية لها"(السعود، 2021، صفحة 223).

تستند المركزية البشرية في نظرتها إلى الطبيعة أيضا على فلسفة "كانط " وما ماورد خاصة في كتابه أسس ميتافيزيقا الأخلاق، حيث اعتبر العقل ضروريا لكل موضوع أخلاقي فاستبعد بذلك كل الكائنات الأخرى من أيّ اعتبار أخلاقي. فلا يمكن أن يحظى غير الإنسان بقيمة جوهرية بينما تتأسّس العلاقة بين الإنسان وباقي الموجودات على أساس القيم الأداتية، فيكون لأي كائن طبيعي قيمة نفعية إذا كان يقدم للإنسان المزيد من الاحتياجات وإشباع الرغبات، ولاوجود لأي واجب أخلاقي بين البشر والطبيعة، فقط واجبات الأشخاص اتجاه بعضهم البعض. إنّ محافظة الإنسان على حياته واجب وهي بالإضافة إلى هذا الأمر يشعر كل واحد منا نحوه بميل مباشر. "إنّ الموجودات التي لايقوم وجودها إلاّ على إرادتنا بل على الطبيعة ليست لها مع ذلك إذا كانت موجودات غير عاقلة غير قيمة نسبية.على أساس أنّها وسائل وهذا هو الّذي يجعلنا نسميها أشياء. أمّا الموجودات العاقلة فتسمّى على العكس أشخاص وذلك لأنّ طبيعتها قد ميّزتها بكونها غايات في ذاتها، أي بما لا يجوز له أن يستخدم كمجرد وسيلة وبالتالي بما يحدّ من كل فعل يتّسم بطابع التعسف والافتعال ومايكون موضوعا للاحترام"(كانط، 2020، صفحة 70). تعتبر نظرية الواجب الكانطي أحد العوامل الرئيسية في استبعاد الطبيعة من دائرة الأخلاق، وعجزت عن إدراك العلاقة الاتيقية بين الإنسان وبيئته فالطبيعة لم تعد موضوع سلوك أخلاقي له وإنّما هي فقط منفعة ومصلحة خاصة له. لأنّها أقامت الفعل الأخلاقي على مبدأ عقلي مطلق وفصلته عن الغايات والأهداف التي ينبغي على الفعل تحقيقها، فقد ركزت على الإنسان فقط واستثنت باقي الكائنات الأخرى.

2.العلم والتنقية

كان لنشأة العلم الحديث دور أيضا في ترسيخ فكرة المركزية البشرية وتغيير نظرة الإنسان للطبيعة والتعامل معها على أنّها آلة لخدمة أغراضه الشخصية. وذلك من خلال تأسيس مناهج علمية دقيقة للسيطرة على الطبيعة على يد غاليلي وكبلر واسحاق نيوتن الذي يرجع له الفضل في تفسير قوانين "كبلر" ووضع أهم كتبه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" سنة 1687 والذي يعد نقطة بداية لانفصال العلم الطبيعي عن حقل الفلسفة، فانحصرت فلسفة الطبيعة على إثره في فرعين من فروع الدراسات الفلسفية: فلسفة العلوم " الابستيمولوجيا" التي اهتمت فقط بدراسة المناهج والمفاهيم والنظريات العلمية، وعلم الجمال الذي اختزل الطبيعة في إطار التجربة الفنية والجمالية(السعود، 2021، صفحة 223).

مع بزوغ فجر العلم الحديث بدأت المفاهيم الكيفية للطبيعة تتلاشى وتزول وأصبحت الطبيعة مجرد قوانين رياضية فقط، فأسدلت القوانين الآلية للعلم الطبيعي والميكانيكا الكلاسيكية ستارها في القرن18م على العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة.

صاحب هذه القوانين الآلية ولادة التقنية وانطلاقتها العنيفة فارتبطا ارتباطا وثيقا وسارا جنبا إلى جنب في الاستغلال الغير العقلاني للطبيعة وممارسة التسلط عليها. وصار العلم والتقنية اللذان تطورا منذ بداية العصر الحديث غريبين غربة تامة عن خصائص الطبيعة وعن معناها الحقيقي، كما أنّ الفكر الحسابي الذي يتّجه إلى تكميم كل شيء قد حجّر وشيّء كل شيء لمسته يداه.

وكانت هذه هي الفكرة التي أكدّها "سيغموند فرويد" Sigmund Freud (1856-1939) في حديثه عن التسامي بالعدوان البشري من خلال التوجه إلى المجال الحيوي بعيدا عن الجنس البشري. فحتى يصبح الإنسان عضوا في المجتمع البشري لابد له أن يستعين بالتقنية المسترشدة بالعلم لمواجهة الطبيعة وإخضاعها للإرادة البشرية. وهذا مارأته أيضا الفيلسوفة البريطانية"ماري ميدجلي"Mary Midgley(1919-2018) حيث يسهل التنبؤ بأنّه في المستقبل عندما يبلغ العلم والتقنية الكمال الذي لايمكن تخيله ستصبح الطبيعة كالشمع الطيع في يد الإنسان، حيث سيكون قادرا على أن ينطلق في أيّ شكل يختاره(السعود، 2021، صفحة 224).

حاول العلماء إخضاع الطبيعة للقوانين الميكانيكية وهذا ماوضّحه الفيلسوف والناقد الاجتماعي الأمريكي"لويس ممفورد"Lewis Mumford(1895-1990)إنّ ماتبقى هو عالم المادة والحركة الأجرد الموحش وأرض خراب، ولتحقيق أيّ درجة من درجات الازدهار كان من الضروري بالبيئة لورثة معبودي القرن السابع عشر أن يملئوا العالم من جديد بكائنات عضوية جديدة صمّمت بحيث تمثل الحقائق الجديدة التي توصل إليها العلم الفيزيائي ولقد كانت الآلات وحدهاهي التي تُلبّي بالكامل مطالب المنهج العلمي ووجهة النظر العلمية إذ كان ينطبق عليها تعريف الواقع على نحو أكمل كثيرا من الأحياء وما إن رسّخت صورة العالم الآلية حتى ازدهرت الآلات وتكاثرت وسادت الوجود وأُبيد منافسوها أو كان مآلهم إلى عالم هامشي لايجرؤ على الإيمان به إلاّ الفنانون والعشاق ومربّوا الحيوان...(رايلي، 1986، صفحة 111)يوضح تحليله هذا كيف أن العلماء سلبوا الطبيعة روحها وجردوها من طابعها السحري ثم اضطروا لملء العالم بمخلوقات آلية تحكمهاالقوانين العلمية بدافع زيادة القوة البشرية.

3. الرأسمالية

صحيح أنّ غالبية الفلاسفة الايكولوجيين يشيرون للفلسفة الديكارتية بأصابع الاتهام كونها شكلت البنية الأساسية للمركزية البشرية والأزمة البيئية. لكن لايعني هذا أنّها المسؤولة الوحيدة عن ذلك. فالسياسات الاقتصادية المعاصرة لها دور كبير في ذلك فقد حملت الرأسمالية شعار " دعه يعمل دعه يمر" فأعطت بذلك الإنسان الحرية المطلقة في استغلال الطبيعة وتحويل ثرواتها من مواد خام إلى مواد مصنعة تلبية لحاجياته. لكن هذا الاستغلال زاد عن حده وأصبح مفرطا لدرجة التسلط والاستنزاف فانقلبت الموازين رأسا على عقب وانزلقت إلى عواقب وخيمة أخلّت بالنظام البيئي. فمبدأ الحرية والمنافسة من أجل زيادة الإنتاج حمل معه العداء والقسوة والاستيلاء على الطبيعة.ففي الاقتصاد الرأسمالي يتم التركيز على الربح فقط متجاهلين الآثار البعيدة المدى للإنتاج من بينها نتائجها على الطبيعة. إنّ الربح الخاص هو دائما خسارة عامة، خاصة عندما تكون الموارد محدودة وعرضة للزوال ومع ذلك يتم استغلالها بشكل تنافسي."فقد أدركت شركة صيد الحيتان لعدة سنوات أنّ الحوت بدأ ينقرض، ولكن لأنّ كل شركة تتصرف بحرية واستقلالية فقد عجزت أن توقف الاستغلال لمصدر ربحها، بل زاد تنافسها في كمية الاستغلال للحصول على أقصى ربح قبل فوات الأوان، إنّها تعجل بنهايتها لأنّه أمر مربح لكل شركة على حدى"(رايلي، 1986، صفحة 123).

فكل القرارات الخاصة باستخدام الثروات وإنتاج السلع يصدرها على نحو فردي خاص من يملكون الثروات والسلع في إطار ما /سيحقق لهم أكبر قدر ممكن من الربح دون الأخذ بعين الاعتبار العواقب الوخيمة لهذه الأنشطة الاقتصادية على البيئة.

ففي سنة 1844 كتب "كارل ماركس"Karl Marx (1818-1883) مخطوطته الاقتصادية والفلسفية "يعيش الإنسان من الطبيعة، هذا يعني أنّها جسده ويجب أن يظل التبادل مستمرا حتى لايموت. إنّ ارتباط الحياة الجسدية

والروحية للإنسان بالطبيعة يعني بكل بساطة أنّ الطبيعة مرتبطة بنفسها لأنّ الإنسان جزء من الطبيعة"(غاسبر، الماركسية والراديكالية البيئية، 2023)

أشار "ماركس"و"انجلز"Friedrich Engels (1820-1895) في كتاباتهما اللاّحقة أنّ الرأسمالية تقطع الصلة بين الناس والطبيعة، ويسميها "ماركس" في بعض الأحيان "بالصدعالاستقلابي" أي انشطار دائم في العلاقات التبادلية الاجتماعية الواردة في قوانين الحياة الطبيعة"(غاسبر، الماركسية والراديكالية البيئية، 2023). خلال أيام "ماركس"و"انجلز" كان الضرر البيئي الناجم عن الرأسمالية منحصرا في مناطق معينة أمّا اليوم فقد بات يهدد العالم بأسره.ولقد قام أعضاء الحملة الاشتراكية البيئية بالعديد من المظاهرات ضد الأنشطة الرأسمالية التي تهدد النظام البيئي وحملوا العديد من الشعارات من بينها لافتات كتبوا عليها " تغيير النظام وليس تغيير المناخ"مدركين أنّالتغيير الاجتماعي والاقتصادي وحده كفيلبحلّ الأزمة البيئية المتفاقمة. فنحن بحاجة إلى نظام اقتصاديلايقوم على المنافسة، بل على التعاون والديمقراطية الاقتصادية والاستدامة الطويلة الأمد.

رابعا: الايكولوجيا العميقة عند "أرني نايس":

1.الايكولوجيا الضحلة

ميّز "أرني نايس" بين نوعين من الإيكولوجية:الايكولوجية الضحلة (السطحية) والايكولوجيةالعميقة.DeepEcology ويرفض بشدة الأولى لمحدودية رؤيتها وضيق أفقها. فهي مجرّد حركة تقوم على مناهضة التلوث وإيجاد بدائل لنضوب المصادر الطبيعية، وتقتصر أولويتها على صحة البشر والوفرة المادية للدول المتقدمة فقط(Naess, 2010, p. 95). فهي تقوم على مركزية الذات الإنسانية التي لاتهتم إلاّ بتحقيق المصالح الإنسانية ولاتأخذ في الحسبان حقوق الطبيعة والكائنات الأخرى، وتضع الإنسان في مركز الكون وبالتالي أفضليته على باقي الكائنات الحية. وتعتبر الطبيعة مجرد أداة مستباحة للطموح الإنساني بلاحدود ولاقيود، متناسية أنّ الإنسان جزء من الطبيعة وأنّ أيّ ضرر يلحقه بالبيئة سينقلب عليه نفسه.

إنّها حركة لاتضع في اعتبارها مصالح واهتمامات وقيم العالم الطبيعي غير الإنساني بل تركز فقط على النمو التكنولوجي والتطور الاقتصادي وعلى منظومة القيم التي تؤكد مصلحة الإنسان وحده (Naess, Ecology of Wisdom, 2016, p. 27)، لذا فإنّ مآلها الفشل والزوال. وهذا مايرفضه بشدة "أرني نايس" لأنّ ارتقاء الإنسان في السلم التطوري لايمنحه حقوقا أسمى من بقية الكائنات الحيّة أو أولوية عليها، بل يفرض عليه العديد من الواجبات اتجاهها. فكلّ الكائنات على رغم اختلافها تتساوى في الحق في الحياة وفي امتلاكها للقيمة الغريزية.

2.الايكولوجية العميقة

يعتبر "أرني نايس" أوّل من صاغ مصطلح "الايكولوجية العميقة" وقدمها كنظرية في مقال له حمل عنوان "**الضحل والعميق حركة الايكولوجية البعيدة المدى**" في مؤتمر أبحاث بخصوص مستقبل العالم الثالث ببوخارست سنة 1972. وطرحها كبديل للإيكولوجية السطحية باعتبارها فلسفة يمكنها أن توفّق بين متطلبات الإنسان من جهة وحقوق الطبيعة والكائنات من جهة أخرى. تقوم على مبادئ العلاقة الجوهرية والمساواة التي تربط جميع الكائنات والتحدي بشكل عميق لطريقة حياتنا الاستهلاكية والإنتاجية(النشار، 2020، صفحة 90). وتتميز ببعد وعمق نظرتها في معالجة الأزمات البيئية، إذ أنّها تفحص كل قيمنا الأساسية وأنماط حياتنا ومكانتنا في الطبيعة وعلاقتنا بالآخرين سواء كانوا بشرا أم كائنات حية غير إنسانية.

ترفض هذه النظرية فكرة مركزية الذات وترى أنها أصل الدّاء لأنّها تعتقد أنّالإنسان هو الحقيقة الجوهرية في الكون، وأنّ الطبيعة وُجدت لأجل الجنس البشري فقط. لذا تدعو إلى نبذ هذه المركزية التي تعد نواة الحضارة الغربية الحديثة، وتضع بدلا منها صورة لشبكة العلاقات الجوهرية الكلية التي تجمع وتربط بين كل عناصر المنظومة البيئية في إطار من التبادل والتفاعل. مامن شأنه أن يضمن المساواة والتوازن ضمن النطاق الحيوي بما يعزز ازدهار كافة أشكال الحياة ويتيح لجميع الكائنات فرصة تحقيق ذاتها وتنجزدورها في سياق السيرورة الطبيعية التي تنشأ فيها.

صاغ "أرني نيس" لنظريته الايكولوجية العميقة ثمانية مبادئ تقوم عليها، وهي مبادئ بيئية فلسفية بعيدة عن المجاز قابلة لأن يفهمها جميع الأشخاص على اختلاف فلسفاتهم ودياناتهم، وتتمثل في:(نايس، 2019، صفحة 56)

- إنّ ازدهار ماهو حي على الأرض له قيمة جوهرية، وإنّ قيمة الأشكال غير البشرية للحياة مستقلة عن النفع الذي تقدمه للأغراض البشرية الضيقة.

- ينظر إلى غنى أشكال الحياة وتنوعها باعتبارهما قيمتين بذاتهما تساهمان في ازدهار ماهو حي على الأرض، سواء كان بشريا أم غير بشريا.

- ليس للبشر الحق في إنقاص هذا الغنى والتنوع إلاّ عند تلبية حاجياتهم الحيوية فحسب.

- إنّ التأثير الراهن للبشر على العالم غير البشري هائل، ويتفاقم الوضع سوءا بشكل متسارع.

- يتوافق ترعرع الحياة البشرية وثقافتها مع خفض مواز لعدد سكان الأرض، ويساهم هذا في ازدهار الحياة غير البشرية أيضا.

- يتطلب التغيير نحو الأفضل في شروط الحياة تغييرا في السياسات والتدابيرالمعتمدة، وهذا ينبغي أن يؤثر على البُنى الأساسية الاقتصادية والتكنولوجيةوالإيديولوجية.

- إنّ التغيير الإيديولوجي الرئيسي المطلوب هو ذلك الّذي يقدّر ويثمّن نوعية الحياة (العيش في حال القيم الجوهرية)، وليس ذلك الذي يُلّح على سوية عالية من الرفاهية. ينبغي أن يكون ثمة وعي عميق بالفرق بين مفهومي الكبير والرفيع.

- إنّ على من يقرّ بالنقاط السابقة ويؤيدها إلزام مباشر أو غير مباشر في المشاركة والسعي لإنجاز التغييرات الضرورية.

3. نقد أرني نايس للنظام الرأسمالي:

يتخذ "نايس" موقفا سلبيا من الدول الرأسمالية في تعاملها مع المشكلات البيئية فهو يحمّل أنظمة هذه الدول المسؤولية في حدوث هذه الأزمات والتقاعس أيضا عن تقديم حلول جذرية لها. لأنّ الرأسمالية كما أشرنا سابقا تتعامل مع الطبيعة على أنّها مجرد مستودع للاستهلاك، ومن الواجب استغلاله لخدمة الأفراد والاقتصاد. غير آخذة بعين الاعتبار الانزلاقات والعواقب الوخيمة لهذا الاستغلال. فالنظام الرأسمالي يسير بشكل متعارض مع التوجهاتالايكولوجية وهذا ما أكده"نايس" في قوله: "لايمكن أن يستمّر الحفاظ على البيئة في ضوء هذا النموذج العالمي للإنتاج والاستهلاك (...) وهذا النموذج يُراكم من تقليل معدلات استمرارية الحياة على كوكب الأرض"(Naess، Ecology of Wisdom، 2016، صفحة 298).

لأنّه وكما ذكرنا سابقا لاتأخذ الرأسمالية بعين الاعتبار الضرر الذي تلحقه بالبيئة من خلال ممارستها، فكل مايهمها هو الربح فقط. لذا فإنّ الحلول التي يقترحها أنصار الحركة الايكولوجية الضحلة والتي تتم داخل الإطار الاقتصادي والسياسي القائم دون التطرق إلى تغييره أو تجاوزه جعلت"نايس" يرفضها وينتقدهم.

هناك جانب آخر ينتقده في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة وهو التقدم التكنولوجي الهائل، فهو يدرك جيدا أنّه لولا هذا التقدم ماكان للرأسمالية أن تُحقق الطفرات الاقتصادية الهائلة التي وصلت إليها في القرن العشرين، فالتكنولوجيا هي أداة الرأسمالية ووسيلتها في تعزيز الهيمنة والسيطرة والاستغلال الواقع على الطبيعة والإنسان. إنّها بحسب وصفه لها "تهدف للضخامة، وتقلل مساحة الحرية الفردية، وتدعم العلاقات غير الشخصية عن طريق تطور التكنولوجيات الإدارية"(نايس، 2019، صفحة 107).

يرى"نايس" أنّ الحل لهذه المشكلات يجب أن يكون بتغيير النظام الاقتصادي وتعديل السلوك البشري في المقام الأول، فحل المشكلات الايكولوجية يكون مستحيلا دون إحداث تغيرات جوهرية في البنية التحتية." فمن غير الحكمة افتراض تحسُّنا يمكن أن يتحقق دون حدوث تغيرات عميقة في الأنظمةالاقتصادية، فالقيم يجب تعزيزها اقتصاديا واجتماعيا". والنظام الاقتصادي البديل يجب أن يكون نظاما إنسانيا يضع في اعتباره الغايات الإنسانية الضرورية، ولايتحقق ذلك إلاّ من خلال ربط الاقتصاد بالأخلاق " ينبغي على رجال الاقتصاد أن يضعوا القيم والأخلاق في اعتبارهم فلايوجد شيء اسمه الاقتصاد المحض"(نايس، 2019، صفحة 90).

4. الحكـــمة الايكـــولوجـــية:

يميز "أرني نايس" بين الايكولوجيا والحكمة الايكولوجية لأنّ الأولى كعلم تُعنى فقط بدراسة الظروف الحيوية المؤثرة في تفاعل الكائنات الحية مع بعضها البعض ومع عالم الأشياء المحيطة بها. بالإضافة إلى دراسة العلاقات بين الموجودات باعتبارها مكونا جوهريا في بقاء هذه الموجودات"(نايس، 2019، صفحة 26). أما الحكمة الايكولوجية فهي أسلوب وسلوك جديد في الحياة في التعامل مع الموجودات الحية غير الإنسانية ودورها يكمن في توعية البشربالمخاطر المترتبة على فرط تدخلهم في عمل الأنظمة الايكولوجية، وتوعيتهم بضرورة إحداث تغيرات جذرية في الكثير من القيم السائدة في المجتمعات الصناعية. هدفها وضع مبادئ للعيش في وفاق مع الطبيعة والكائنات الأخرى. يقول: " اقصد بالحكمة الايكولوجية فلسفة للانسجام والتوازن ونوع من الحكمة تضع المعايير وقواعد السلوك والافتراضات، فليس مهمتها شجب التلوث ونضوب المصادر والزيادة السكانية، لكن شغلها الشاغل هو إعلان أولوية القيم"(Naess، Ecology of Wisdom، 2016، صفحة 32).

الحكمة الايكولوجية هي حدس قيمي يحفز الروح والوعي على الاهتمام ببيئتنا والشعور بالمسؤولية اتجاهها ويعبر عن ذلك في قوله: " التواضع ذو قيمة محدودة إذا لم ينشأ من مشاعر أعمق بكثير، والأهم من ذلك إذ لم يكن نتيجة طريقة لفهم أنفسنا كجزء من الطبيعة بالمعنى الواسع للكلمة، فكلما صغر شعورنا حول الجبال زادت احتمالية أن يشاركوننا في عظمتهم رغم صعوبة شرح هذه المفارقة" (Naess, une ecosophie pour la vie , 2017, p. 102). فالفكرة الجوهرية في الحكمة الايكولوجية تكمن في أن ينطلق كل فرد من الحدوس الأساسية نحو قيمة الطبيعة وإجلالها ويطور حدوسه حسب نظرته الخاصة أي كل حسب خصوصياته الفردية وميوله الديني أو العلمي أو الفلسفي. فالحكمة الايكولوجية هي بمثابة نقطة الانطلاق لشق طريق جديد في عصر التكنولوجيا الذي ينمو فيه وعي الفرد وشعوره بذاته كونها ذات ايكولوجية في هذا العالم، والسعي نحو إرساء ووضع القواعد والمبادئ التي تعبر عن البعد الايكولوجي الراهن من خلال تأسيس علاقة جديدة بين الإنسان والطبيعة. من هنا يكون سير الحكمة الايكولوجية من الأنا مباشرة نحو الطبيعة بكل امتداداتها.

خاتمة:

إنّ الأزمة الايكولوجية الراهنة أزمة إنسانية شاملة، فهي وليدة اختلال للعلاقة بين الإنسان المعاصر وبيئته، هذه العلاقة التي ساهمت في تشكيلها العديد من المرجعيات الفلسفية والعلمية والاقتصادية. وللخروج من هذه الأزمة لابدّ للفكر البشري أن ينعتق ويتبنّى فكرا جديدا يعيد الإنسان إلى حجمه الحقيقي ويضعه في مكانه الصحيح بحيث يصبح مساويا للطبيعة وكل منهما يحظى بقيمة تحفظ له وجوده. وإذا كان أيضا التطبيق السيئ للعلوم والنظام الاقتصادي والسياسي، الذي يضع مصلحة الإنسان فوق كل اعتباريمنع وجود حّد للممارسات الإنسانية التي تستهدف النظام البيئي وتحدث اختلالا في توازنه، فإنّ الاستخدام المتسم بالعقلانية والحصافة سيكون الملاذ والملجأ للخروج منها. ولن يتحقق ذلك إلاّ من خلال خروج الرؤى الفلسفية الاتيقية المعاصرة من حيّز القناعة الفردية لتعمّم في كافة المجتمعات الديمقراطية وتسخّر كل الجهود لتبنيّها وتجسيدها على أرض الواقع.حيث تعتبر الايكولوجية العميقة مجالا خصبا لتساؤلات عميقة ورؤية أعمق للأزمة الايكولوجية. اعتمدت على الآلية النقدية التجاوزية، بغية تأسيس مشروع إنساني جديد، يُقوّم أعطاب الحداثة ويعيد ترتيب وضع الإنسان في الطبيعة ودوره فيها،فهي تجسد نظرة جديدة للبيئة وكيفية التعامل معها والانتفاع بها،إنّها تمثل لحظة استيقاظ للضمير البشري وتشكيل الوعي البيئي قبلأن يقضي الاستغلال غير العقلاني على الكوكب برمته وإقامة عهد جديد مع الطبيعة تتعايش وفيه كل الكائنات بما فيها الإنسان ضمن علاقة متوازنة.

قائمة المصادر والمراجع

Naess, A. (2010). the shalllow and the deep, Longe -Range Ecology movement. A summary. *Inquiry, 16*, 95.

Naess, A. (2016). *Ecology of Wisdom.* Penguin Classics.

Naess, A. (2017). *une ecosophie pour la vie* . (P. M. Mubalegh Naïd, Trad.) Paris: Seuil.

Routly, R. S. (1979). *Against the Inevitability of Human Chouvinisme, In Goodpaster and Sayre ethics and the problems of the 21st century.* University of Notre-Dames.

أحمد, س. ع .(2006) .*التلوث البيئي في الوطن العربي واقعه وحلوله ومعالجته*.مصر: الشركة الدولية للطباعة.

السعود, ع. أ .(2021) .*الحصاد الفلسفي للقرن العشرين*.مصر: مؤسسة هنداوي.

المعجم الوسيط .(2004) .مصر: مكتبة الشروق الدولية.

النشار, م .(2020) .*مدخل إلى فلسفة البيئة والمذاهب الإيكولوجية المعاصرة* .(éd. 5)القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

ديكارت, ر .(1930) .*مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم*) .(éd. 119)م. م. الخضيري (.Trad, القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها.

رايلي, ك .(1986) .*الغرب والعالم، ج2*) .ع. ا. حجازي (.Trad, الكويت: المجلس الوكني للثقافة والفنون والاداب.

رومية, م. ش .(s.d.) .الايكولوجية العميقة نظرة فلسفية إلى الازمة البيئية .*الرافد*.1 ,

صليبا, ج .(1978) .*لمعجم الفلسفي*.بيروت: دار الكتاب اللبناني.

غاسبر, ف .(2023) .*الخط الأمامي*Récupéré sur http://revoleftsyria.org .

غاسبر, ف .(2023) .*الماركسية والراديكالية البيئية*) .م. ك. وترجمات Récupéré sur (.Trad, العامل الاشتراكيhttp://revoleftsyria.org :

كانط, ا .(2020) .*أسس ميتافيزيقا الأخلاق*) .ع. ا. مكاوي (.Trad, مصر: مؤسسة هنداوي.

محمود, ز. ن .(1999) .*قصة الفلسفة الحديثة*.القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

منظور, ا .(s.d.) .*لسان العرب*.د.

منظور, ا .(s.d.) .*لسان العرب*.لبنان: دار لسان العرب.

نايس, أ .(2019) .*علم البيئة والجماعة وأسلوب الحياة*) .(éd. 1)ل. ع. الرزاق (.Trad, القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

نسيم, و. خ .(2019) .أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية المعاصرة .*مجلة التفاهم، المجلد 17*.205 ,